مِنْ أعْلامِ أصُولِ الدِّين بالوَسَطِ التُّونِسيِّ

الإمامُ ٱبْنُ يُونُس الصَّقَلِّي

(ت٤٥١هـ)

تحرير

نزار حمّادي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله الذي شرح صدورنا بالإيمان، وهدانا للإسلام، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا مُحَمَّدٍ خير الأنام، وعلى آله وصحبه والكرام.

وبعد، فأفتتح هذه الكلمة بالشكر الجزيل للقائمين على الإدارة الجهوية للشون الدينية بولاية المنستير على تنظيم هذه الندوة النافعة بإذن الله تعالى، وعلى إتاحة الفرصة لي لزيارة هذا البلد الطيب ذي التاريخ الحافل بالبطولات والعِلْم والصَّلاح والتقوى، وعلى التعريف بعَلَمٍ جليلٍ من أعلام بلادنا التونسية المباركة وهو الإمام أبو بكر بن يونس (ت٤٥١هـ) رحمه الله تعالى، ولا أدلّ على بركةِ هذا اللقاء من اغتنام مناسبته لتحقيق نصِّ عقيدته النافعة من كتابه الجامع والعناية به ضبطا وتوثيقا وتقديمًا، وقريبا بإذن الله تعالى تكون ماثلةً بين أيدكم مطبوعةً في أبهى الحُلَل. وكذلك على إتاحة الفرصة للكلام على بعض أركان دليل الإمام الخطيب الصادر عن وزارة الشؤون الدينية سنة ٢٠١٩م والذي أعْتَبِرُه أهمَّ نصٍّ دينيٍّ رسمي في العصر الحديث بعد الفصل الأول للدستور التونسي الذي جاء في فيه: «تُونِسُ دَوْلَةٌ حُرَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ ذَاتُ سِيَادَةٍ الإِسْلَامُ دِينُهَا»، فإن الإسلامَ بقَيْدِ كونه اسمًا للدِّين الخَاتِمِ يشتمل على ثلاثة أركانٍ كما جاء في حديث جبريل وهي الإيمانُ والإسلامُ والإحسانُ، والمقصود بالإيمان العقائد التي تعبَّدنا اللهُ عزَّ وجلَّ بالتصديق بها والإذعانِ لها، والمقصود بالإسلامِ شرائعُ الإيمان من العبادات العَمَلِيَّة التي كَلَّفَنا اللهُ بها، والمقصود بالإحسانِ إتقانُ جميعِ ذلك والإتيانُ به مستوفى الشروط ظاهرا وباطنًا، وقد تكفّل دليل الإمام الخطيبِ ببيان مرجعية أهل تونس في كل ركن من تلك الأركان بكلِّ وضوح وهي العقيدة السنية الأشعرية، والفقه المالكي، والتصوُّفُ السُّنِّي الجُنَيْدِي، فكان ذلك حسب علمي أوَّلَ وأهَمَّ شَرْحٍ لِمَا تضمَّنه الفَصْلُ الأوَّلُ مِن فصُول الدُّستور التونسي المعاصر.

وقد أحسن وأتقن القائمون على وزراة الشؤون الدينية بيان وشرح المرجعية الدينية الرسمية للبلاد التونسية، وإن كان بشيء من الاقتضاب والاختصار، وما هذه الندوات إلّا شرحٌ وتفصيل ذلك واستدلالٌ وبرهنةٌ على ما ورد في الدليل حتى يطمئن السادة الأيمة والخطباء ومدرسو الآفاق لمضمون الدليل، وينخرطوا انخراطا جادًّا وقويًّا في دراسة منهج أهل السنة في تونس وفق تلك المرجعية التي اتصل سندها بإمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه، ومنه إلى

التابعين الذين وردوا على البلاد التونسية حاملين لأركان الدين الثلاثة كما تلقوها عن الصحابة عن النبي الأكرم ﷺ كما سنحاول بيانَهُ في هذه الكلمة.

مرّة أخرى أجدّد الإعراب عن سعادتي بتواجدي في المنستير التي قال فيها الشيخ مقديش: «المُنَسْتِير» قصُورٌ ثلاثة يَسْكُنها العُبَّادُ والصُّلَحَاءُ، وهِيَ مَحَلُّ رِبَاطٍ وعِبَادَة، وكان أهل المهدية يدفنون موتاهم بالمنستير تبركا بها يجلبونهم في الزوارق إليها فيدفنوهم بها، ثم يعودون إلى بلدهم، ولم تكن بالمهدية جبانة معروفة ،وفي المهدية كانت وفاة الإمام المازَري رحمه الله تعالى ونفعنا به، ومنها نقل للمنستير[1].

قال القاضي أبو بكر بن العربي في القَبَس: دخلتُ المنستير رباطَ أفريقية فلَقِيتُ المُتَعَبِّدِين الَّذِينَ أَعْرَضُوا عنِ الدُّنْيا وأَقْبَلَوُا على خدمة المولى[2].

قلتُ: منهم سعدون بن أحمد أبو عثمانٍ الخَوْلانِيُّ المُتَعَبِّدُ بالمُنَسْتِير. أدْرَك الإمامَ سَحْنُونًا، ثمّ سمِعَ من ابنهِ الإمام مُحَمَّدِ بن سُحْنُون. وقد ذكره القاضي عياضٌ في الشفا وذكر المنستير[3]. ومِنْ كلامِ الخولانيِّ: «أصُولُ الدِّينِ أرْبَعٌ: رَدُّ المَظالِم، والكَفُّ عن المَحارِم، والكَفُّ عنْ أعْرَاضِ النَّاس، والنَّظرُ في المَعِيشَةِ. وَهِيَ تُورِثُ أَرْبَعًا: غِنًى بِلَا مَالٍ، وعِلْمًا بلا تَعَلُّمٍ، وعِزًّا بلا عَشِيرَةٍ، وأُنْسًا بِلَا جَمَاعَةٍ»[4].

وللإمام يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني (ت٢٨٩هـ) من أكابر تلاميذ سحنون كتاب «**فضل المنستير والرباط**»[5].

---

(١) نزهة الأنظار (ج١/ص١١٣)

(٢) القبس في شرح الموطأ (ج١/ص٢٤٤)

(٣) الشفا بتحقيق كوشك (ص٥٩٩)

(٤) رياض النفوس ج٢/ص٢٥١)

(٥) ترتيب المدارك للقاضي عياض (ج٤/ص٣٥٩)

الكلمة

الحمد لله رب العالمين

وبعد، فقد صحَّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسُدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[1].

قال الإمام عِزُّ الدين بنُ عبد السلام (ت٦٦٠هـ): «صلاحُ الأجْسادِ مَوْقُوفٌ على صَلاحِ القُلوبِ، وفسَادُ الأجْسادِ مَوْقُوفٌ على فسَادِ القُلُوبِ، فإذا صَلَحَتِ القُلوبُ بالمَعارِفِ ومحاسِنِ الأحْوالِ والأعْمالِ.. صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ بالطَّاعَةِ والإذْعَانِ، وإذَا فَسَدَتْ بِالجَهالاتِ ومسَاوِئِ الأحْوالِ والأعْمالِ.. فسَدَ الجسَدُ كُلُّه بالفُسُوقِ والعِصْيَان»[2].

وقال الشيخ الإمام محمَّدُ الطاهِرُ بْنُ عاشور (ت١٣٩٤هـ): «إِنَّ إِصْلَاحَ عَقْدِ الإنْسَانِ هُوَ أَسَاسُ إصْلَاحِ جَمِيع خِصَالِهِ، ويَتَفَرَّعُ عَنْ ذلِكَ ٱشْتِغَالُه بإصْلَاحِ أعْمَالِه، وعلى هذَيْن الإصْلَاحَيْنِ مدَارُ قوانِينِ المُجْتَمَع الصَّالِح؛ فإنَّ أعْمَالَ العَامِلِينَ تَجْرِي علَى حسَبِ مُعْتَقداتِهِمْ وأفْكارِهِمْ، وجَدِيرٌ بمَنْ صَلَحَتْ عقائِدُهُ وأفْكارُهُ أنْ تَصْدُرَ عنْهُ الأعْمالُ الصالِحَةُ، وبمَنْ ذهَلَ عنْ حقائِقِ العَقِيدَةِ أوْ أَخْطَأَ في إدْرَاكِهَا أنْ تَصْدُرَ عنْهُ الأعْمالُ الفاسِدَةُ، ولا يخْفَى تأثِيرُ ذلِكَ في حِفْظِ نِظامِ المُجْتَمَعِ وصلَاحِ أحْوالِ أهْلِهِ أو فَسادِهَا»[3].

ومِنْ هُنا ٱهتمَّ العُلمَاءُ شَرْقًا وغربًا بتَوْضِيحِ العقائِدِ الصَّحِيحَةِ وبيانِها، والدِّفاعِ عنها وصَوْنِها، وقد كان لعُلماءِ البلادِ التونسية عمومًا دورٌ بارزٌ في القيام بذلك الأمر، وأقْدَمُ الآثار التي وَصَلْتنا في ذلك رسالَةُ الفقهاء العَشَرة[4] إِلَى الخَوارِجِ الَّذِينَ قَتَلُوا المُسْلِمِينَ وسَلَبُوا أمْوَالَهم، وذلك في حدود سنة (١٢٤هـ) في ولاية حنظلَةَ بْنِ صَفْوَان، ونصُّها:

---

(١) متفق عليه.

(٢) القواعد(ج١/ص٢٩٧)

(٣) أصول النظام الإجتماعي في الإسلام (ص ٤٩)

(٤) هم التابعون الفقهاء الذين أرْسَلَهُم عمر بْنُ عَبْدِ العَزيز (ت١٠١هـ) لَمَّا وَلَّى إسماعيلَ بنَ أبي المهاجر على إفريقية سنة (١٠٠هـ) فكان خيْرَ أمِيرٍ وخير والٍ، وما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلامِ حتى أسلمَ بقيَّتهم على يديه. ومن أولئك الفقهاء: عبد الرحمن بن نافعٍ، وسعد بن مسعودٍ التجيبي. (البيان المغرب ج١/ص٤٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بعْدُ، فإنّ أَهْلَ العِلْمِ بِاللَّهِ وَبِكتابِهِ وَسُنَّة نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعلمُونَ أنه يَرْجِعُ جَمِيعُ ما أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى عَشْرِ آيَاتٍ: آمِرةٍ، وَزَاجِرةٍ، وَمُبَشِّرةٍ، وَمُنْذِرَةٍ، ومُخْبِرَةٍ، ومُحْكَمَةٍ، وُمُتَشابِهَةٍ، وَحَلَالٍ، وحَرَامٍ، وأَمْثَالٍ؛ **فآمِرَةٌ** بالمَعْرُوفِ، **وزاجِرَةٌ** عنِ المُنْكَر، **ومُبَشِّرةٌ** بالجَنَّة، **ومُنْذِرَةٌ** بالنَّار، **ومُخْبِرَةٌ** بخبَرِ الأَوَّلِين والآخِرِين، **ومُحكَمَةٌ** يُعْمَلُ بِهَا، **ومُتَشَابِهَةٌ** يُؤمَنُ بهَا، **وحَلَالٌ** أُمِرَ أنْ يُؤتَى، **وحَرامٌ** أمِرَ أن يُجتَنَب، **وأَمْثَالٌ** وَاعِظَةٌ؛ فمَنْ يُطِع الآمِرَةَ وتزْجُرُهُ الزاجِرَةُ فقدِ ٱسْتبْشَرَ بالمُبَشِّرة، وأَنْذَرَتْهُ المُنْذِرَةُ، ومَنْ يحلِّلِ الحَلالَ وَيُحرِّمِ الحرَامَ، ويَرُدَّ العِلْمَ فيمَا ٱخْتَلَفَ فيهِ النَّاسُ إلى اللَّهِ، معَ طاعةٍ واضِحَةٍ، ونيَّة صالِحَةٍ، فقَدْ فازَ وأَفْلَحَ وأَنْجَحَ، وَحَيِيَ حَيَاةَ الدُّنْيَا والآخِرَة، والسَّلَامُ عليْكُمْ ورَحْمَةُ اللهِ(١).

ثم توارثَ علماءُ البلادِ التونسيةِ هذا المنهج السُّنِّيَّ الزَّكيَّ عَبْرَ أعْلَامٍ:

ـ **منهم علي بن زياد (ت١٨٣هـ)** : وهو الشيخ أبو الحسن عليُّ بنُ زياد العَبْسِيُّ الطَّرَابُلُسيُّ مولدًا التُّونِسِيُّ وَفَاةً، كانَ ثقةً مَأْمُونًا مُتعبِّدًا بارِعًا في الفِقْهِ، سَمِعَ مِنْ مَالكٍ والثَّوْرِيِّ واللَّيْثِ وغَيْرِهم، ولم يَكُنْ فِي عَصْرِهِ بإفْرِيقِيَّةَ مِثْلُه(٢). وَسَمِعَ مِنْهُ البُهْلُولُ بْنُ رَاشِدٍ، وسَحْنُونٌ، وأَسَدُ بْنُ الفُرَاتِ، وَغَيْرُهُمْ(٣).

له مواقفُ محمودةٌ في الدفاع عن عقيدة أهل السُّنَّة، منها ما حكاه المالكيُّ في «رياض النفوس» قال: مَرَّ علي بن زياد بأبي مُحْرَز وعندهُ الطلبة [وأبو محرز هو: محمد بن عبد الله بن قيس الكناني القيرواني القاضي، وكانَ معتزليًا، تولى القضاء ٢٣ سنَة بالقيروان] فقال له: يا أبا مُحرز ما الذي أراد اللهُ سبحانه وتعالى مِن عباده؟ قالَ: الطَّاعَةَ. فقال له: وما ٱلَّذِي أرادَ إبْلِيسُ مِنْهُمْ؟ فقال له: المَعْصِيَةَ، فقال له: أي الإرادَتَيْنِ غَلَبَتْ؟ فقالَ لَهُ أبو مُحْرز: أقلني أقالك الله

---

(١) رياض النفوس (ج١/ص١٠٣)

(٢) رياض النفوس (ج١/ص٢٣٤)

(٣) رياض النفوس (ج١/ص٢٥١)

تعالى، فقال له عليٌّ: والله لا أُقِيلُكَ حتَّى تَتُوبَ عَنْ بِدْعَتِكَ، ثم ٱلْتَفتَ عَلِيٌّ بن زياد إلى الطلبة فقال: شاهَتِ الوُجوهُ، أَفَمِنْ هَذَا تَسْمَعُون؟![1].

ـ ومنهم **أَسَدُ بنُ الفُرات (١٤٥ ـ ٢١٢هـ)**، أصلُه مِن خُراسَان مِنْ نَيْسَابور، ٱخْتلَفَ إلى علِيِّ بن زياد بتونس يتعلَّمُ منه العلمَ، ثم ارتحل إلى المشرق فسمع من مالك موطأه.

قال أبو العرب: كان أَسَدٌ ثقةً، لم يكن فيه شيء من البِدَع، لقد حدَّثني بكر بن حماد قال: قلتُ لسَحْنُونٍ: إنهم يقولُونَ: إنَّ الأَسَدَ بْنَ الفُرَاتِ قال: القُرْآنُ مَخْلُوقٌ. فقال سَحْنُونٌ: وَاللَّهِ مَا قالَهُ، ولو قالَهُ ما قُلْنَاهُ[2].

قال المالكيُّ: كان أَسَدٌ إمامَ العراقيين بالقَيْرَوان كافَّة، مشهوراً بالفَضْلِ والدين، ودينُهُ ومَذْهَبُهُ هُوَ السُّنةُ، يقولُ: القرآن كَلَامُ الله عَزَّوَجَلَّ وليسَ بمَخْلُوقٍ، وكان يبَدِّعُ من يَقُولُ غَيْرَ ذلِكَ[3].

وَكانَ أَسَدٌ يَقُولُ: يا مَعْشَر طَلَبَةَ العِلْمِ؛ إنَّكُمْ تنُوبُونَ للمُسْلِمينَ نِيابَةً عظيمةً بتَقْيِيدِكم العِلْمَ علَيْهِمْ، فلَكُمْ في بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ حَقٌّ لِذَلِكَ، وكذلك قالت العلماء: من ناب نيابة للمسلمين فله في بيت مالهم حقٌّ[4].

وكان يقولُ مبالغةً في إثباتِ الرُّؤْيَةِ وهي مِنْ عَقائِد أهل السنَّةِ: «واللَّهِ لوْ أُدْخِلْتُ الجَنَّة فحُجِبْتُ عَنْ رُؤْيَتِهِ لشَكَكْتُ فِيهِ، ولأنَا أَسَرُّ بِرُؤْيَةِ رَبِّي مِنِّي بِالجَنَّةِ»[5].

ـ ومنهم **سَحْنُونُ بْنُ سَعِيدٍ التنوخي (١٦٠ ـ٢٤٠هـ)** أخذ عن عَلِيِّ بْنِ زياد، ورحل إلى المدينة عام (١٨٨هـ) كما قال أبو العرب، وقبلها عام (١٧٨هـ) كما قال ٱبْنُه مُحَمَّدٌ، فكانَتْ له رحلتان كما قال القاضي عياض، سمِعَ فيهما ٱبْنَ القاسِم، وٱبْنَ وَهْبٍ، وأَشْهَبَ، وسُفْيانَ بْنَ عُيَيْنَة، ووكيعَ بْنَ الجراح، والوليد بن مسلم وغيرهم[6].

---

(١) رياض النفوس (ج١/ص٢٣٥)

(٢) طبقات علماء إفرقية لأبي العرب التميمي، (ص ٨١ ـ ٨٢)

(٣) رياض النفوس (ج١/ص٢٦٤)

(٤) رياض النفوس (ج١/ص٢٦٨)

(٥) رياض النفوس (ج١/ص٢٦٨)

(٦) ترتيب المدارك (ج٤/ص٤٦)

وكان سَحْنُونٌ حافِظًا للعِلْمِ، ولَمْ يَكُنْ يَهابُ سُلْطَانًا في حَقٍّ يُقِيمُه، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ شَرَّدَ أَهْلَ الأَهْواءِ مِنَ المَسْجِد الجامع، وكان فيه حَلَقات للصُّفْرِيَّة مظْهِرينَ لزَيْغِهِمْ[1].

لَمَّا وُلِّيَ أحمدُ بْنُ الأغلبِ الإمارَةَ أَخَذَ الناسَ بالمِحْنَة بالقُرْآنِ، فلمَّا وصَلَ إليه سَحْنُونٌ جمَعَ له قُوَّادَه وقاضِيَهُ ٱبنَ أبي الجَوَاد، وسألَهُ عَنِ القُرْآنِ فقال سَحْنُونٌ: أَمَّا شيءٌ أَبْتَدِيه مِنْ نفسي فلا، ولكنَّ الذي سَمِعْتُ مِمَّنْ تعلَّمتُ مِنْهُ وأخَذْتُ دِينِي عَنْهُ كَانُوا يَقُولُونَ: «القُرْآنُ كلَامُ اللَّهِ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ»[2].

ـ **ومنهم مُحَمَّدُ بن سَحْنُون (٢٠٢ ـ ٢٦٥هـ)**: سمع من أبيه سَحْنُونٍ، ومن موسى بن معاوية الصمادحي، وحج سنة (٢٣٥هـ) فلَقِيَ أبا المُصْعَب (١٥٠ ـ ٢٤٢هـ) بالمدينة، ولقي سَلمةَ بْنَ شبيب (ت٢٤٧هـ) وغيرَهما من العلماء، وكان في مذهب مالك من الحُفَّاظِ المتقدمين، وفي غير ذلِكَ مِن المذاهب مِنَ النَّاظِرينَ المُتَصَرِّفِينَ، وكان كثير الوَضْعِ للكُتُبِ غزِيرَ التَّأْليف، يحكى أنه لما تصفح محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (١٨٢ ـ ٢٦٨هـ) كتابَه وكتاب ابن عبدوس قال في كتاب ابن عبدوس[3]: هذا كتابُ رَجُل أتى بعِلْمِ مالِكٍ علَى وَجْهِه، وقال في كتاب ٱبْنِ سحْنُونٍ: هذا كتابُ رَجُلٍ سبَحَ في العِلْم سبْحًا[4].

قال الخُشَني: مُحَمَّدُ بْنُ سَحْنُونٍ كانت له أَوْضَاعٌ في المناظرة في فِقْهِ الفُقهاء **وَفي كَلَامِ المُتَكَلِّمين**، قال لَهُ سُلَيْمَانُ الفَرَّاءُ[5] المعروف بابن أبي عصفور: «يا أبا عبد الله! آللهُ سَمَّى

(١) طبقات علماء تونس، (ص ١٠١، ١٠٢)

(٢) كتاب المحن لأبي العرب (ص٤٦٤)

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن عبدوس، من حفاظ المذهب المالكي، إمام متقدم غزير الاستنباط جيد القريحة، له كتاب سماه المجموعة ألفه في الفقه على مذهب الإمام مالك وأصحابه. (راجع طبقات علماء إفريقية، للخشني، ص ١٣٣)

(٤) طبقات علماء إفريقية للخشني، (ص ١٢٩)

(٥) هو: سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء، كان يقول بخلق القرآن، وكان من أهل الجدل والمناظرة في ذلك، رحل ودخل بغداد وله كلام في مشكل القرآن وكتاب ألفه فيه، وسمعت من يذكر أنه سلخه من كتاب مشكل القرآن لقطرب النحوي، وله كتاب في أعلام النبوة، وله كتب في مذهبه في خلق القرآن. (طبقات علماء إفريقية، ص ٢١٩)

نَفْسَهُ؟» أراد بذلك أن يقول له نعَمْ فيُثْبِتَ عليه الإقرارَ بحُدُوثِ الأسْمَاءِ والصفاتِ، فقال له ٱبنُ سَحنون: «**اللهُ سَمَّى نَفْسَهُ لَنَا، ولم يَزَلْ ولَهُ الأسماء الحسنى**»[1].

ومن النصوص المهمة أيضا الدالة على رسوخ قدم الإمام محمد بن سحنون في **علم الكلام** السُّنِّي الذي يَعْتَنِي بالدفاع عن الأُصُولِ الاعْتِقادِيَّة التي جاء بها القرآن العظيمُ، ما حكاه صاحب كتاب «رياض النفوس» إذ قال: كان يصحب محمدَ بنَ سحنون ويطلب عليه الفقه **وعلمَ الكلام** والحلال فتًى يُعرَف بأبي الفضل بن حميد، أخو عليّ بن حميد الوزير، ولم يكن في علم الجدل بالماهر، فخرج إلى الحج فمرّ بمصر، فدخل حماما بها، فإذا عليه رجل يهوديّ، فلما خرج من الحمام أقبل يناظر اليهودي، فلما رجع دخل على محمد بن سحنون، فهابَهُ أن يذكر الحكاية، فقضى الله تعالى أن خرج محمد بن سحنون على إثر ذلك إلى الحج، فصَحِبَهُ ذلك الرجل إلى مصر، فمضى به إلى الحمام الذي عليه ذلك اليهودي، فلما خرج ابْنُ سَحنون سبقه ذلك الرجل بالخروج، فأنشب المناظرة مع اليهودي، فلما خرج ابن سحنون وجدهما يتناظران، وقد استعلى اليهودي على الرجل بكثرة الحجاج والمناظرة بالباطل لضعف الرجل وقلة معرفته بالمناظرة، فدخل معهما محمد فيما هما فيه، ورجعت المناظرة بين اليهودي ومحمد بن سحنون حتى حضرت صلاة الظهر، فأقام محمد الصلاة وصلى، وعاد إلى المناظرة حتى حضرت صلاة العصر، فأقام محمد الصلاة وصلى العصر، ثم عاد إلى المناظرة فلم يزل إلى صلاة المغرب وقد اجتمع الناس إليهما من كل موضع، وشاع ذلك بمصر، وقال الناس بعضهم لبعض: امضوا نسمع المناظرة بين الفقيه المغربي وبين اليهودي، فلما كان عند صلاة المغرب انحصر اليهودي وانقطع عن الحجة، وظهر عليه ابن سحنون بالدلائل الواضحة والحجة البالغة.

فلما تبين اليهودي الحق بالبرهان وأراد الله ﷻ هدايته قال عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، فأسلم وحَسُنَ إسلامُه، فكبّر الناس عند ذلك وعلت أصواتهم بالتكبير، وقالوا: «أسلم اليهودي على يدي الفقيه المغربي» فقام محمد وهو يمسح العرق عن جبينه، ثم ردّ وجهه إلى صاحبه وقال: «لا جزاك الله خيراً عني»، ولامَهُ أَشَدَّ اللَّوْم، وقال له:

(١) طبقات علماء إفريقية، (ص ١٩٨)

«كاد أن تجري على يديك فتنة عظيمة، كيف تأتي إلى رجل يهودي تناظره وأنت ضعيفُ المناظرة والجدل؟! فإذا رأى من أراد الله ﷻ فتنتَهُ هذا الذي كان يهوديا قد غلبك واستظهر عليك بباطله أدخلت عليه الفتنة، وداخله الشك في دينه. فلا تكن لك عودةٌ لمثل هذا، وتب إلى الله ﷻ من ذلك، ولولا أني خفت الفتنة على الناس أن يداخلهم شك في دينهم ما ناظرته[1].

ـ **ومنهم أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت٣٠٢هـ)** قال المالكيُّ: «كانَ علَماً ثقةً في الفقه والكَلَامِ والذبِّ عن الدين والردّ على فِرَق المخالِفين للجماعة، مِن أذهن الناس وأعْلَمِهِمْ بمَا قالَهُ النَّاسُ، صَحِبَ سَحْنُوناً وسَمِعَ مِنْهُ»[2].

قال القاضي عياض: كان مذهبه الاختيارَ والنظرَ والمناظرة وفهمَ القرآنِ والمعرفةَ بمعانيه، وكان يقول: ما من حرف من القرآن إلا وأعددتُ له جوابًا، ولكن لم أجد سائلا[3]. كانت له مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفع عن الإسلام والذبّ عن السُّنة، ناظر فيها داعيةَ بني عُبَيْدٍ الروافضِ عند دخولهم إفريقية، فناظرهم مناظرة القرين المُساوي، لا بل مناظرة المتعزِّز المتعالي، لم يُحْجِمْ لهَيْبَةِ سلطان، ولا خاف ما خيف عليه من سطوتهم[4]. حَتَّى قَالَ لَهُ وَلدُه أَبُو مُحَمَّدٍ: يَا أَبتِ اتَّقِ الله فِي نَفْسِك وَلاَ تبَالغ. قَالَ: حَسْبِي مَنْ لَهُ غَضِبتُ، وَعَنْ دِينِهِ ذَبَبْت. وَله مَعَ شَيْخ المُعْتَزِلَة الفَرَّاء مُنَاظَرَاتٌ بِالقَيْرَوَان، رَجَعَ بِهَا عددٌ مِنَ المُبتدِعَة[5].

وكان الإمام سعيد بن الحداد يقول: «ما مِنْ شَيْءٍ أحَبَّ إليّ مِنْ دفْعِ الضَّلالِ بالحَقِّ، ولو أنّ ضلالةً ألقاها إبليسُ اللعينُ بالصين ثم وردت عليَّ لكشفتُ عن باطلها وأظهرتُ حقَّ الله سبحانه وتعالى فيها»[6].

---

(١) رياض النفوس (ج١/ص٤٥١)
(٢) راجع رياض النفوس (ج٢/ص٥٧، ٥٨)
(٣) ترتيب المدارك ٧٨/٥
(٤) ترتيب المدارك ٧٩/٥
(٥) سير أعلام النبلاء (ج١٤/ص٢٠٦)
(٦) رياض النفوس (ج٢/ص٦٩)

ـ **ومنهم الإمام أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (٣١٠ ـ ٣٨٦هـ)** قال الإمامُ القَاضِي عِيَاضٌ (ت٥٤٤هـ) كانَ أبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ إمامَ المالِكِيَّة في وَقْتِه وقُدْوَتَهم، وجامِعَ مذْهَبِ مالِكٍ، وشارِحَ أقْوَالِه، وكانَ واسِعَ العِلْمِ كَثِيرَ الحِفْظِ والرِّوَايَة، وكتُبُه تشْهَدُ له بذَلِكَ، فصيحَ القَلَمِ، ذَا بيانٍ ومعرفة بما يقوله، ذابًّا عَنْ مَذْهَبِ مالِكٍ، قائماً بالحجة عليه، بَصِيرًا بالرَّدِّ على أهل الأهواء[1].

وقال أيضا في فِي تَرْجَمَةِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ البَغْدَادِيِّ المُعْتَزِلِيِّ: «كَتَبَ إِلَى فُقَهَاءِ القَيْرَوَانِ رِسَالَةً مَعْرُوفَةً يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَى الاعْتِزَالِ وَالقَوْلِ بِالقَدَرِ وَالـمَخْلُوقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ، وَيَذُمُّ لَهُمْ طَرِيقَةَ مُتَكَلِّمِي أَهْلِ السُّنَّةِ وَمَذْهَبَ الأَشْعَرِيِّ وَيُبَدِّعُهُ، فَجَاوَبَهُ فُقَهَاءُ القَيْرَوَانِ بِالإِنْكَارِ عَلَيْهِ، وَجَاوَبَهُ أَبُو مُحَمَّدِ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ كِتَابِهِ بِرِسَالَةٍ مَعْرُوفَةٍ، **ظَهَرَ فِيهَا عِلْمُهُ وَقُوَّتُهُ فِي الكَلَامِ وَالرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الأَهْوَاءِ**»[2].

ومما يميّز عَصْرَ الإمامِ **ٱبنِ أبي زيد القيرواني** (ت٣٨٦هـ) حُصولُ التَّواصُلِ والتَّوَافُقِ التامِّ في أصول الدين بين المَدْرَسَةِ القيروانية والمَدْرَسَة السُّنِّية المَشْرِقِيَّة الأشْعَرِيَّة، ولذلك مظاهِرُ كثيرة وشَواهِدُ عديدة:

[١] ـ منها المراسلات والاستجازاتُ التي دارَتْ بينَ الإمام ابن أبي زَيْدٍ (ت٣٨٦هـ) وبين الإمام أبي عبد الله محمد بن مجاهد (ت٣٧٩هـ) تلميذِ الشَّيْخِ أبي الحسَن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، وأستاذِ القاضي أبي بكر الباقلاني(ت٤٠٣هـ). وقد وصَلَتْنَا ووقفنا على ما كان بينهما من التَّوادُد والتَّوَافُق والإجلال والاحترام.

[٢] ـ ومنها رِحْلَةُ القَيْرَوانيين من تلاميذ وأصْحَابِ الإمام ابن أَبِي زيدٍ (ت٣٨٦هـ) إلى العراق للأخذ عن تلاميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، نخصُّ بالذكر منهم رجلين:

١. **أبو بكر إسماعيل بنُ إسحاق بْنِ عَزْرَةَ الأزْدِي** (ت٤٠٥هـ). قال القاضي عياض: فقيه فاضِلٌ زاهِدٌ قيْرَوَانِيٌّ، مِنْ أصْحَابِ **أبي مُحَمَّدِ بْنِ أبِي زَيْدٍ** وطبقتِهِ، ورحل الى

(١) ترتيب المدارك، (ج٦/ص٢١٦)

(٢) ترتيب المدارك، (ج٦/ص٢٠٧)

المشرق فلقي **ابنَ مجاهدٍ الطائي المُتكَلِّمَ وأخَذ عنه**، وأثْنَى عليْهِ ٱبْنُ أبي زَيْدٍ في شَيْبَتِه(١). ولعلَّ مرادَ القاضي عياضٍ بثناء الإمام ابن أبي زيدٍ على ابن أبي عزرة ما ورد في مراسلته للإمام ابن مجاهد حيث كتب له: ذكرتُ أن شَابَّيْن ممن يقرب منا توجَّها إلى الشيخ من مكة للقياهُ ولُقْيَا أبي بكر الشيخ الأبهري رعاهُ اللهُ، فذكرتُ أنهما حمَلَا معهما هذا المختصر ـ يعني مختصر المدونة ـ مصححا مقابَلًا، مع كلِّ واحدٍ منهما نسخةٌ، وهما شابان مِمَّنْ عُنِيَ وفَهِمَ وهما محمد بن خلدون، وإسماعيل بن إسحاق يُعْرَفُ بابن عَزْرَة(٢).

٢. **وأبو القاسم عبْدُ الرحمن بن عبد المؤمن**، قال القاضي عياض: مكيٌّ من المُتَكَلِّمِينَ على مَذْهَبِ أهْلِ السُّنَّة، أخذ عن **ٱبْنِ مُجاهِدٍ البَصْرِيِّ في العراق**، وسَكَنَ القيروان، وصحب **ٱبْنَ أبي زَيْدٍ القَيْرَوانِيَّ** وغَيْرَه، وأثْنَوْا علَيْهِ خَيْرًا(٣).

[٣] ـ ومنها دفاع الإمام **ٱبن أبي زيد** عنِ الشيخ أبي الحسن الأشعري وعقيدته، كما تقدمت الإشارةُ إليه، ومن النصوص التي وصلتنا في ذلك قولُه في الردِّ على المعتزليِّ: «وذَكَرْتَ **الأَشْعَرِيَّ** فنَسَبْتَهُ إلَى الكُفْرِ، وَقُلْتَ: «إنَّهُ كانَ مَشْهُورًا بالكُفْرِ». وَهَذا ما عَلِمْنَا أنَّ أحَدًا رَمَاهُ بالكُفْرِ غيْرُك، ولَمْ تَذْكُرِ الَّذِي كُفِّرَ بِهِ. وكَيْفَ يَكُونُ مَشْهُوراً بالكُفْرِ مَنْ لَمْ يَنْسِبْ هَذَا إِلَيْهِ أَحَدٌ عَلِمْنَاهُ فِي عَصْرِهِ وَلَا بَعْدَ عَصْرِهِ؟!».

ثم شرَحَ مُعْتَقَدَ الشَّيْخِ أبي الحسن الأشعري في مَسْأَلَةِ صِفَةِ الكَلَامِ لِتَبْرِئَتِهِ مِمَّا نُسِبَ لَهُ فِي مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ وَقَالَ: «وَالقَارِئُ إذَا تَلَا كِتَابَ اللهِ لَوْ جازَ أنْ يُقَالَ: إنَّ كَلَامَ هذا القَارِئِ كَلَامُ اللهِ عَلَى الحَقِيقَةِ» لفَسَدَ هَذَا؛ لِأَنَّ كَلَامَ القَارِئُ مُحْدَثٌ ويَفْنَى كَلَامُهُ ويَزُولُ، وكَلامَ اللهِ لَيْسَ بِمُحْدَثٍ ولا يَفْنَى، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وصِفَتُهُ تعالى لا تَكُونُ صِفَةً لِغَيْرِهِ. هَذَا قوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ

---

(١) ترتيب المدارك (ج٧/ص٢٧٤)

(٢) مراسلة ابن أبي زيد وابن مجاهد (ص٢٤)

(٣) ترتيب المدارك (ج٦/ص١٨١)

البُخَارِيِّ، ومُحَمَّدِ بْنِ سَحْنُونَ إمَام المَغْرِبِ، وكلامُ **سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَدَّادِ، وكانَ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ**، ومِمَّن يردُّ على الجهمية[1].

[٤] ـ ومنها ثناء القاضي أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) على الإمام ابن أبي زيد القيرواني، بل كان على جلالة شأنه يطلق على ٱبْنِ أَبِي زَيْدٍ لَفْظَ: «**شَيْخِنا**»، ووَصَفَهُ في كتاب لهُ: «**بفَضْلِ العِلْمِ وَحُسْنِ الدِّينِ وَقُوَّةِ البَصِيرَةِ، والاضْطِلَاع بعِلْم أصُولِ الدِّين، والانْبِسَاطِ فِي التَّوَسُّعِ فِي مَعْرِفَةِ فُرُوعِهِ وَأَحْكَامِه**»[2].

وهذا مِمَّا جعل **الإمامَ أبا الوليد الباجي** (ت٤٧٤هـ) يُطلقُ القولَ بأنَّ الشَّيْخَ ٱبْنَ أَبِي زَيْدٍ وَالشَّيْخَ أَبَا الحَسَنِ القَابِسِيَّ كانَا يَتَّبِعَانِ مَذْهَبَ القَاضِي البَاقِلاني، وأنهم هُم المُشارُ إِلَيْهِم بأَهْلِ السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ العَصْرِ[3].

وكذلِكَ العلامةُ مُحَمَّد الفَاضِلُ بْنُ عَاشُورٍ (ت١٣٩٠هـ) حيث قال فِي سِيَاقِ الكَلَامِ عَلَى مَعَالِمِ تَجْدِيدِ الدِّينِ: «وَكَانَ الَّذِي اضْطَلَعَ هُنَا بِهَذَا العَمَلِ التَّجْدِيدِيِّ لِلْإِسْلَامِ **هُوَ الإِمَامُ أَبُو الحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ**، وَبِمَا ظَهَرَ عَنْ طَرِيقَتِهِ الثَّقَافِيَّةِ الجَدِيدَةِ مِنْ تَوْفِيقٍ وَٱعْتِدَالٍ وَجُنُوحٍ إِلَى نَصْرِ السُّنَّةِ تَعَلَّقَ بِكُتُبِهِ وَمَقَالَاتِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الـمُحَدِّثِينَ وَالفُقَهَاءِ، وَتَخَرَّجُوا عَلَيْهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى طَرِيقَةِ حِكْمَتِهِ فِي الدِّينِ، فَكَانَ مِنْ دُعَاةِ مَذْهَبِهِ كِبَار فُقَهَاءِ المَذَاهِبِ فِي عَصْرِهِ، وَخَاصَّةً مِنَ المَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ، حَتَّى كَانَ مُعَاصِرُوهُ بِالمَغْرِبِ مِنْ فُقَهَاءِ المَالِكِيَّةِ يَنْصُرُونَ طَرِيقَتَهُ وَيُزَكُّونَهَا، **مِثْلُ الشَّيْخِ الإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي زَيْدٍ القَيْرَوَانِيِّ**»[4].

وعلى سَنَنِ ونَهْجِ هَؤلاء الأيمة الأعلام المُحَافِظِينَ على عقائد الإسلام نشَأَ الإمامُ ٱبْنُ يُونُس المالِكي رحمه الله تعالى.

ترجمَةُ الإمامِ ٱبْنِ يُونُس (ت٤٥١هـ)

قال الشيخ العلامة مُحَمَّد مَخْلوف (ت١٣٦٠هـ) جامعًا شتات ما تفرّقَ في ترجمةِ الإمام ابن

(١) التبيين لابن عساكر (ص٦٩٩ ـ ٧٠٠) طبعة دار التقوى.

(٢) كتاب البيان (ص)

(٣) المنتقى في شرح الموطا، (ج٩/ص٢٧٢)

(٤) ومضات فكر للشيخ العلامة محمد الفاضل بن عاشور (ج٢/ص٤٩)

يُونس: هو أَبُو بَكْر مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله بْنُ يونُسَ التَّمِيميُّ الصَّقَلي: الإمامُ الحافِظُ النَّظار، أحَدُ العُلمَاءِ وأئِمَّة التَّرْجِيحِ الأخْيَارِ، الفقيهُ الفَرَضِيُّ الفاضِلُ المُلَازِمُ للْجِهَاد، المَوْصُوفُ بالنَّجْدَةِ، الكامِلُ. ألّف كتاباً في الفرائض، وكتاباً حافلاً للمدونة أضاف إليها غَيْرَهَا مِنَ الأُمَّهَاتِ، عليْهِ ٱعْتِمَادُ طلبَةِ العِلْمِ. توفي في ربيع الأول سنة (٤٥١ هـ). وقَبْرُهُ بالمُنَسْتِيرِ مُتَبَرَّكٌ به[١] حَذْوَ بابِ القَصْرِ الكبِير، يعرف بسَيِّدِي الإمام[٢].

۞ شيوخ الإمامِ ٱبن يونس:

أخذَ الإمام ابْنُ يُونُس العلوم عن شيوخ جلَّةٍ، جُلُّهُمْ مِنْ تلاميذ الإمام ٱبن أبي زيد القيرواني.

[١] ـ **أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن المعروف بٱبن الحصائري الصَّقَلِّي**: القاضي العالِمُ الفقيهُ الفاضِلُ الرَّاوية، مع الورع والدين المتين. **سَمِعَ أَبَا مُحَمَّدِ بْنَ أَبِي زَيْد**، وأبا الحسن بن بكرون من أهل طرابُلُس، وأبا عبد الله محمَّد بن أحمد بن يزيد القروي. أخذ عنه الناس وتفقهوا به. سمع منه عتيق السَّمَنْطَارِي[٣]، **وأبو بكر محمَّد بن يونس** وعتيق بن عبد الحميد بن الفرضي وغيرهم[٤].

---

(١) قال الشيخ مخلوف: ومن الفضلاء الذين تشرفنا بزيارتهم من عُلماء فاس المحروسة الشيخ أحمد ٱبن نقيبِ الأشراف بمدينة فاس الشيخ المأمون البلغيثي العلوي الحسني، دخل المنستير قاصداً زيارة الإمامين أبوي عبد الله محمَّد بن يونس الصقلي ومحمد المازري.(شجرة النُّور الزكية (ج١/ص٢٦١) أيضا: شيخنا المسنِد الرَّحال محمد عبد الحي الكتاني حلّ بالمنستير قاصداً زيارة الإمامين الجليلين أبوي عبد الله محمد بن يونس ومحمد المازري (ج١/ص٦٢٠)

(٢) شجرة النُّور الزكية (ج١/ص١٦٤ ـ ١٦٥)

(٣) **أبو بكرٍ عتيق بن عليِّ بن داود السَّمَنْطاريُّ** (ت٤٦٤هـ) نسبة إلى «سَمَنْطار» وهي قريةٌ صغيرةٌ من قرى صَقلِّيَّة. عابدٌ زاهدٌ محدِّثٌ، له تصانيفُ منها: كتابٌ كبيرٌ في الرَّقائق و«دليل القاصدين» و«أخبار الصَّالحين» و«أخبار العلماء». قال ياقوت الحَمَويُّ: «العابد أبو بكرٍ عتيق بن عليِّ بن داود المعروف بالسَّمَنْطاريِّ، أحدُ عبَّاد الجزيرة المجتهدين وزُهَّادها العالمين، وممَّن رفضَ الأُولى، ولم يتعلَّق منها بسبب، وطلبَ الأُخرى، وبالغ في الطَّلب، وسافر إلى الحجاز، فحجَّ وساح في البلدان، من أرض اليمن والشَّام، إلى أرض فارس وخراسان، ولقيَ مَنْ بها من العُبَّاد، وأصحاب الحديث والزُّهَّاد، فكتب عنهم جميعَ ما سمع، وصنَّفَ كلَّ ما جمع، وله في دخول البلدان ولقياه العلماءَ كتابٌ بناه على حروف المعجم في غاية الفصاحة، وله في الرَّقائق وأخبار الصَّالحين كتابٌ كبيرٌ لم يُسْبَقْ إلى مِثْلِهِ في نهاية الملاحة، وفي الفقه والحديث تآليفُ حِسانٌ في غاية التَّرتيب والبيان، وله شعرٌ في الزُّهد ومكايدِ الزَّمان». (الوافي بالوفيات، ج١/ص٤٦٢) ومعجم البلدان للحموي: سمنطار.

(٤) شجرة النور، (ج١/ص١٦٤)

قلتُ: وذكَرَهُ ابْنُ يُونُس مرارًا في جامع المُدَوَّنة بقوله: شَيْخُنا أبو الحَسَنِ القاضي[1].

[٢] ـ **أبُو بَكْرِ بْنُ أبِي العَبَّاسِ الصَّقَلِّي**: فقيه صَقَلِّيَّة وعالِمُها ومُدَرِّسُهَا، أخذ عن ٱبْنِ **أَبِي زَيْدٍ**، وحَدَّثَ عَن القَابِسِي، وعنه أخذَ أبو بكر محمَّد بْنُ يُونس الصَّقَلِّي[2].

ذكره الدباغ في «معالم الإيمان» في ترجمة الإمام ٱبن أبي زيدٍ القيرواني فقال: «وذكرَ الفقيهُ **أبو بكر بْنُ أبي العبَّاسِ الصَّقَلِّيُّ** يومًا **أبا محمَّدٍ** بْنَ أبي زيدٍ في مجلس فتاويه وَذَكَر فضائِلَه فبَكَى وقال: كان أعطاني أيامَ طلبي عليه بالقيروانِ جاريةً، وإنّ وَلَدِي هذَا مِنْهَا، وأشَارَ إلى ولده»[3].

قلتُ: وذكره ٱبْنُ يونس في شرح المدونة[4].

[٣] ـ **أبو بكر عتيق السُّوسي**. قال الدَّباغ: جَمَع العلمَ والعبادةَ والزُّهْدَ والوَرَعَ والتَّقَشُّفَ وكِبَرَ الهمَّة، من الفقهاء المبرّزين والحُفاظ المعدودين، وكان حافظا للفقه والحديث عارِفًا بمعانيه عالما بالنحو واللغةِ، مع دينٍ متينٍ وورع حاجزٍ، وهو الذي صلّى على أبي عمرانَ الفاسي[5].

وقال القاضي عياض: قيروانيٌّ مِن أصْحاب القابِسي رضي الله عنه[6].

قلتُ: وذكرَهُ ٱبْنُ يُونُسَ فقال: «هكذا كان يُدارِسُنَا شَيْخُنَا الفقيهُ أبو بكر عتيق الفقيه الفارض»[7].

[٤] ـ **أحمد بن عبد الرحمن أبو بكر الخَوْلانيّ القَيْروانيّ (٤٣٢ هـ)** قال القاضي عياض في التعريف به: من أهل القيروان، وشيخ فقهائها في وَقْته مع صاحبهِ أبي عمران الفاسي[8].

---

(١) انظر مثلا: (ج٦/ص٢٣٦)

(٢) شجرة النور، (ج١/ص١٦٤)

(٣) معالم الإيمان (ج٣/ص١١٣)

(٤) انظر: (ج٦/ص٣٣٧) و (ج١٢/ص٦٣٩)

(٥) معالم الإيمان (ج٣/ص١٨١)

(٦) ترتيب المدارك (ج٧/ص٢٦٩)

(٧) الجامع (ج٢١/ص٥٤٠)

(٨) ترتيب المدارك (ج٧/ص٢٣٩)

قال الدباغ: **قرأَ علَى أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زَيْدٍ**، ثم لزم الشيخ **أبا الحسن القابسي** وانقطع إليه حتى لم يكن في أصحابه مثله، وأباح له أبو الحسن الفُتيا في حياته، وعرض عليه أن يقاسمه في جميع ما يملكه فامتنع(١).

قال الإمام ٱبْنُ يُونُس في الجامع مؤكِّدا تلمذته على الخولانيِّ: وسألتُ الشَّيْخَ الفقيهَ أبا بكر بن عبد الرحمن رضي الله عنه(٢).

قلتُ: والخولانيُّ هو الذي قال في كتاب محمد بن المواز: «لوْ عُدِمَ هذا الكتاب لأمْلَيْتُه مِنْ حفظي»(٣)،في قصَّةٍ أوردها القاضي عياضٌ.

[٥] ـ **أبو عِمْرَانَ الفاسِيُّ (ت٤٢٩هـ)** قال حاتِم الطرَابُلُسِيُّ (٣٧٨ـ ٤٦٩هـ): كان رحمه الله مِنْ أحْفَظِ النَّاسِ وأعْلَمِهِمْ، كانَ قد جمَع حِفْظَ المذهب المالكيّ والحديث والمعرفة به وبمعانيه، وكان يقرئ القرآن بالقراءات السَّبع ويجوّدها، وكان ذا معرفةٍ بالرجالِ والتعديل والتجريحِ، فما لُقِيَ أحدٌ في عَصْرِنَا أوْسَع علمًا منه ولا أكثر روايةً، وحجَّ مِن القيروانِ حِجَجًا، ورحلَ بغداد. تركته بالقيروان حسا، وتوفي بعدي سنة تسع وعشرين وأربع مئة.

وذكره الإمام أبو عمرٍو الداني (ت٤٤٤هـ) في طبقات القراء له قال: شَهِدَ مجلسَ القاضي أبي بكْرِ بْنِ الطَّيِّبِ الباقلاني رَحِمَهُ الله، وقَدِمَ القَيْرَوانَ وأَقْرَأَ بها مدَّةً، ثم تَرَكَ الإقراءَ ودرَّسَ الفِقْهَ وأسْمَعَ الحَدِيثَ إلى أن توفي(٤).

قال الإمام أبو بكر الباقلاني لأبي عمران الفاسِي: لو اجتمعت في مدرسةٍ أنت وعبْدُ الوَهَّابِ بْنُ نَصْرٍ لاجتمع فيكما عِلْمُ مالِكٍ؛ أنت تحفظهُ، وهو يَنْصُره، لو رآكما مالِكٌ لسُرَّ بكما(٥).

وكان القاضي عبد الوهاب (ت٤٢٢هـ) يراسِلُه، وممَّا كتب له في بعض المراسلات:

(١) معالم الإيمان ترجمة رقم ٢٨٤

(٢) الجامع (ج٨/ص١٠٢٣)

(٣) ترتيب المدارك (ج٧/ص٢٤١)

(٤) عيون الإمامة لأبي طالب المرواني (ص١٦٧ ـ ١٦٨)

(٥) معالم الإيمان (ج٣/ص١٦٠)

«ٱجتماعُنَا على هذَا المَذْهَبِ المبارَكِ الجامعِ لاعتقادِ السنَّةِ وطريقة السَّلَفِ الصالح رضي الله عنهم يقتضي عمارةَ سَبِيلِ المواصلَةِ وٱتصالَ المكاتبَة»[١].

وقد أكثر ٱبن يونس من ذكرِ شيخه الإمام أبي عِمْرَانَ الفاسِيّ في شرح المدونة وكان يطلق عليه «الفقيه الجليل»[٢]، و«الفَقِيه الخَيِّر»[٣]. كما أكثر من اعتمادِ رسالة الحرَّة للقاضي الباقلاني في عقيدة جامِعِه، والظاهر أنه درسها على شيخه أبي عمرانَ الفاسي رحمهما الله تعالى.

[٦] ـ **أبو محمد عبد الملك بن الحسن بن عبد الله الصَّقلي**. كان من تلاميذ الأستاذ أبي بكر بن فُورَك (ت٤٠٦هـ). وقد ورد في فهرسة ٱبن خير الإشبيلي أن كتاب «**تَأْوِيل الأخبار المتشابهة والردِّ على المُلْحِدة**» مِمَّا أملاه أبو بكر بن فورك رحمه الله على أَبِي مُحَمَّدٍ عبد الملك بن الحسن الصقلي[٤]. وقد كان من أساتذة الإمام أبي عمرو الداني عند مروره بالقيروان.

۞ مُؤَلَّفَاتُ الإمام ابن يونس:

ـ أبرزها: «**الجامِعُ لمَسائل المدونة والمُخْتَلِطَة وآثارِها وزياداتِها ونظائِرِها، وشَرْحُ ما أَشْكَلَ مِنْها وتَوْجِيهُهُ، والفَرْقُ بيْنَهُ وبَيْنَ مَا شاكَلَهُ**».

ضمّنه الإمام ابن يونس اختصارَهُ للمدونة، وهو يعد أَدَقَّ من تهذيب البرادعي الذي ذاعَ صِيتُهُ في الآفاق حتى إنه كان يدعى بالمُدَوَّنَة. وشَرحَ اختصارَهُ مُنَفِّذًا بذلك مَا أَوْصَى به الإمامُ **ٱبْنُ أبي زيد** من الجمع بين المُدَوَّنة وبين نوادِره وزيادته على المدونة، فصارَ جامعهُ يُغْنِي عنهما. كما ضمَّنه تعليقاتِ أبي إسحاق التُّونسي على المُدَوَّنَة، وفوائد من النُّكَتِ والفروق لعبْدِ الحَقِّ الصقلي.

---

(١) عيون الإمامة لأبي طالب المرواني (ص١٦٩)

(٢) انظر مثلا: (ج٨/ص١٠٠٠)

(٣) الجامع (ج٧/ص٧١٨)

(٤) فهرسة ابن خير الإشبيلي (ص١٦٧)

قال فيه القاضي عياض: عَلَيْهِ اعْتِمَادُ الطَّالِبِينَ في المغرب للمذاكرة[١].

ـ قال الحَجَوِيُّ: كان يُسَمَّى مُصْحَفَ المَذْهَبِ لصِحَّةِ مسَائِلِه ووُثُوقِ صَاحِبِه[٢].

ـ نقل عنه الإمام ابن عرفة في مختصره الفقهي في ١٤٣٨ مَرَّةً مُلَقِّبًا إِيَّاهُ بالصَّقَلِّي.

وقال فيه العلامة الغلاوي الشنقيطي:

واعْتَمَدُوا الجَامِعَ لِٱبْنِ يُونُسِ ❊ وكانَ يُدْعَى مُصْحَفًا لَكِنْ نُسِي

وقال «**الأبِّي**» في مسألة مِلْكِ الكتُب التي لا تَمْنَعُ من أخذ الزكاة: والحاصل أن الضروري للإنسان لا يمنعه من الأخذ، والضروري لكل إنسان بحسبه، كالفرس لمن هي له كرجليه، كما يتفق لبعض الموحدين ولبعض المرابطين الفقراء، فإن الفرَس لا يمنعه من الأخذ، وكالتهذيب والتنبيهات وابن محرز وعبد الحق لمن فيه قابلية الطلب، **وكابن يونس** واللخمي والبيان والتعاليق **لمن فيه قابلية التدريس**[٣].

ويعد ابن يونس أحد الأربعة الذين اعْتَمد ترجيحاتِهم وأقوالَهم الشيخُ خلِيلٌ في مختصره الفقهي، وكان يرمز إليه بـ«التَّرْجِيح»، قال خليل: «وبـ«التَّرْجِيح» لابن يونس».

۞ الكلامُ على عَقيدة الجامع للإمام ابن يونس.

ذيّل الإمام ابن يونس ديوانه الفقهي بكتاب الجامع على ما جرت به عادة الأيمة المالكية تبعا لصنيع إمامهم مالكٍ رضي الله عنه في موطئه، وقد صدَّره بعقيدة إيمانِيَّةٍ سُنِّيَّةٍ شريفةٍ جليلةٍ وصف ما تضمنته بقوله: «**وَكُلُّ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ هُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةِ النَّاسِ فِي الفِقْهِ وَالحَدِيثِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ، وَكُلُّهُ قَوْلُ مَالِكٍ، فَمِنْهُ مَنْصُوصٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَمِنْهُ مَعْلُومٌ مِنْ مَذْهَبِهِ**».

ويمكنُ أن نقول بأن مصادِرَ عقيدة الإمام ابن يونس في جامعه أربعة:

---

(١) ترتيب المدارك، (ج٨/ص١١٤)

(٢) الفكر السامي، (ج٢/ص٢١٠)

(٣) المعيار المعرب، (ج١/ص٤٨٢)

[١] ـ الأوَّل: **رسالة الحرَّةِ** للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) سُمِّيت بذلك لقول القاضي في أوَّلِهَا: «أمَّا بعدُ، فقد وقَفْتُ على ما ٱلْتمَسَتْهُ الحُرَّةُ الفاضِلَةُ الدَّيِّنَةُ ـ أحْسَنَ اللهُ توفِيقَها لِمَا تتوَخَّاهُ من طلَبِ الحَقِّ ونُصْرَتِه، وتنَكُّبِ الباطِلِ وتَجَنُّبِه، وَٱعْتِمادِ القُرْبَةِ بٱعْتِقادِ المَفْرُوضِ في أحْكامِ الدِّينِ، وٱتِّباعِ السَّلفِ الصَّالحِ من المؤمنين ـ مِنْ ذِكْرِ جُمَلِ ما يَجِبُ على المُكَلَّفِين ٱعْتِقادُهُ، ولا يَسَعُ الجَهْلُ به، وما إذا تدَيَّنَ به المَرْءُ صارَ إلى ٱلْتِزامِ الحَقِّ المَفْرُوضِ، والسَّلامة مِن البِدَعِ والباطِلِ المَرْفُوضِ، وإنِّي بحَوْلِ اللهِ تعالى وعَوْنِه ومَشِيئَتِه وطَوْلِه أذْكُرُ لها جُمَلاً مختصرَةً تأتِي على البُغْيَةِ مِنْ ذَلِكَ، وتَسْتَغْنِي بالوُقوفِ عليْهَا عنِ الطلبِ وإشْغالِ الهِمَّةِ بما سِوَاهُ»(١).

وقد اتصل سندُ الإمام ابن يونس (ت٤٥١هـ) بالقاضي الباقلاني (٤٠٣هـ) من طريق الإمام أبي عمران الفاسي (ت٤٢٩هـ) الذي كان من تلاميذ الباقلاني كما قدَّمنا، وبذلك يتَّصِلُ سند الإمام ٱبن يونس بالشيخ أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) بواسطة الإمام ٱبن مجاهد البصري (ت٣٧٩هـ) وهو أستاذُ الباقلاني وتلميذُ الأشعري كما تقدَّمَ. فبَيْنَ الإمام ٱبْنِ يُونُسَ وبيْنَ الشَّيْخ أبي الحسن الأشْعَرِيِّ ثلاثَةُ رجالٍ فقط وهُمْ: أبو عِمْرَانَ الفَاسِيُّ (ت٤٢٩هـ)، وأبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، وأبو عبد الله بن مجاهد البصري (ت٣٧٩هـ).

[٢] ـ الثَّانِي: جامع ٱختصار المدوَّنةِ للإمام ابن أبي زيدٍ القيرواني (ت٣٨٦هـ). أكثر الإمام ابْنُ يونُس أيضًا من النقل عنه، لا سيما في مسألة زيادةِ الإيمان ونَقْصِه حيث نقلَ كلامًا للإمام ابن أَبِي زَيْدٍ وأَرْدَفَهُ بشَرْحِهِ وتوجيهِهِ. وقد مرَّ معنا أن الإمام ابن يونس قد تتلمذ لعديد من تلاميذ الإمام ابن أبي زيدٍ، لذا فإنه يُعْتَبَرُ من أعلم الناسِ بمقاصِدِه وأَقْدَرِهم على شرحها. ومن طريقهم يتصل سند الإمام ابن يونس بالإمام مالكٍ رضي الله عنهم جميعًا.

[٣] ـ الثالِثُ: كتابٌ للأستاذ الإمام أبي بكر بن فُورَك (ت٤٠٦هـ) رحمه الله تعالى ولم نهتدِ لاسمهِ، ولا يبعدُ أن يكون كتابَ «**شرح أوائل الأدلة**». وقد وَصَلَتْ كتُبُه إلى القيروان عن طريق تلميذه **عبدِ المَلِك بْنِ الحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الله أبي محمد الصقلي**. وقد أسند الإمام أبو بكر بن

---

(١) رسالة الحرَّة (ص١٢) تحقيق الشيخ زاهد الكوثري، وهو اسمها الصحيح، وقد طبعت باسم الإنصاف.

خير الإشبيلي من طريق الإمام الداني كتابَ **تأويل الأخبار المتشابهة والرد على الملحدة**(١) للأستاذ أبي بكر ابن فورك رحمه الله عن أبي عبد الملك بن الحسن الصقلي، قال: رواه عنه أبو عمرو عثمان بن سعيد المقري الحافظ الداني رحمه الله(٢). وأسند عنه أيضا كتاب «**مُشْكِل إعْراب القرآن**» قال: قال الداني: حدثنا به أبو محمد عبد الملك بن الحسن الصقلي عن أبي بكر بن فُورَك مؤلفه رحمه الله(٣).

[٤] ـ الرَّابعُ: كتابٌ للإمام أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ). ونرجّح أنه المُسَمَّى بـ«**رسالة في الاعتقادات**»: قال في معالم الإيمان في ترجمة القابسي: «وله تواليف منها الكتاب «**المُمَهِّد**»، بلغ فيه إلى ستين جزءاً، ومات ولم يكمله، وهو كتاب كبير الفائدة مبوَّبٌ على أبواب الفقه جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه، أجازَهُ لجماعةٍ منهم أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني المقرئ، وله كتاب «**الملخّص**»، وكتاب «المنّبه للفطن من غوائل الفتن»، و«المُبعد مِن شُبَه التأويل»، و«رسالة في الاعتقادات»، و«**الرسالة الناصرة**»، و«**رسالة في الذكر والدعاء**»، و«**الرسالة المفصّلة لأحوال المعلمين والمتعلمين**»، [وهذه قد وصلتنا وتكلم فيها كلاما جميلا في تعريف الإيمان والإسلام والإحسان]، وله غير ذلك من تواليفه، وقد أشغلته العبادة عن التأليف، فإن أوقاته كلَّها كانت عامرة بالخير(٤).

---

(١) وهو المطبوع باسم مشكل الحديث وبيانه، ومن النصوص المهمة فيه التي تبين استناد الإمام الداني عليه قوله: اعْلَم أَنا إِذا قُلْنَا إِن الله عز وَجل فَوق مَا خلق لم يرجع بِهِ إِلَى فوقية الْمَكَان والإرتفاع على الأَمْكِنَة بالمسافة والإشراف عَلَيْهَا بالمماسسة لشَيْء مِنْهَا بل قَوْلنَا إِنَّه فَوْقهَا يحْتَمل وَجْهَيْن: أَحدهمَا أَنه يُرَاد بِهِ أَنه قاهر لَهَا مستول عَلَيْهَا إِثْبَاتًا لإحاطة قدرته بهَا وشمول قهره لَهَا وَكَونهَا تَحت تَدْبيره جَارِيَة على حسب علمه ومشيئته. وَالوَجْه الثَّانِي: أَن يُرَاد أَنه فَوْقهَا على معنى أَنه مباين لَهَا بِالصّفةِ والنعت وَأَن مَا يجوز على المحدثات من الْعَيْب وَالنَّقْص وَالْعجز والآفة وَالْحَاجة لَا يَصح شَيْءمن ذَلِك عَلَيْهِ ولايجوز وَصفه بِهِ وَهَذَا أَيْضا مُتَعَارَف فِي اللُّغَة أَن يُقَال فلَان فَوق فلَان وَيُرَاد بذلك رفْعَة الْمرتبَة والمنزلة وَالله عز وَجل فَوق خلقه على الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا. وَإِنَّمَا يمْتَنع الْوَجْه الثَّالِث وَهُوَ أَن يكون على معنى التحيز فِي جِهَة والاختصاص ببقعه دون بقْعَة. (مشكل الحديث وبيانُهُ، ص١٧٣)

(٢) فهرسة ابن خير (ص١٦٧)

(٣) فهرسة بن خير (ص٦١)

(٤) معالم الإيمان (ج٢/ص١٣٨)

[٥] ـ الخامس: كتاب للإمام الحسنِ بن أحمد بْنِ شَاذان أبي عليّ البزاز (٣٣٩ ـ ٤٢٦هـ) قال الخطيب البغدادي: كان صدوقًا صحيحَ الكتابِ، وكان يفهمُ الكلامَ على مذهب الأشعري[١]. نقل عنه الإمامُ ابن يونس في موضعين. ولم نقف على أصل الكتاب بعدُ.

فهذه أبرز المصادر التي اعتمدَ عليها الإمام ابن يونس في عقيدة جامِعِه، مع زياداتٍ وتوضيحات مهمّةٍ، إضافة إلى حسن التبويب والترتيب لمسائل العقيدة، كما يتضح لدارسها.

وفي الختام أذكر بعض التوصيات التي أوجهها لنفسي وللباحثين:

ـ مزيد الاهتمام بكتاب عقيدة الجامع للإمام ٱبْنُ يُونِس دراسةً وشرحًا، فإنه يعدُّ من أهم المصادر العقدية لأهل السُّنة والجماعة في القرن الخامس إلى جنب الرسالة الواعية للإمامأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)

ـ مزيد الاهتمام بتاريخ دخول العقائد الإسلامية السُّنية إلى البلاد التونسية ومزيد التدقيق في أسانيدها ورجالها الذين قاموا بتدريسها والدفاع عنها، واستقراء وتتبع المؤلفات التي وقعت لهم في ذلك، وربط جهودهم بعلماء المشرق والمغرب الأقصى والأندلس.

ـ الحِرْص على تكوين الأيمة في علم أصول الدين بمختلف مراتبِه تكوينًا يجعلهم قادرين على تدريس عوامِّ المسلمين ورُوَّاد المساجد أساسيات العقيدة الإسلامية، ويؤهلهم شيئا فشيئا لاستعادة واجب الدفاع عن تلك العقائد كما كان عليه علماء البلاد التُّونسية، وفي ذلك حفاظٌ على وَحدة وانسجام الشعب التونسي ونَزْعٌ لفتيل الاختلافات العقديّة التي تشتت شملهم، على حدّ قول الشاعر:

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ يُرْجَى زَوَالُهَا ❊ إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ

وختامًا أجدد شكري للقائمين على الإدراة الجهوية للشؤون الدينية بولاية المنستير على حُسن تنظيم هذه الندوة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب نزار حمادي

يوم السبت ٢٢ ربيع الثاني ١٤٤٣هـ/٢٧ نوفمبر ٢٠٢١م

(١) تاريخ بغداد، ترجمة رقم: ٣٧٢٥. (ج٨/ص٢٢٣)